المجلد: 12 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحات: 8-22 ISSN : 9577-1112 EISSN : 2602-5388

الشيخ مبارك الميلي المؤرخ، عرض لحياته ومنهجه في الكتابة التاريخية

Sheikh Mubarak Al-Melli, the historian, presented his life and his approach to historical writing

د/ رشيد مياد

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة يحيى فارس – المدية الجزائر

rachidmiad@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2019/01/26 تاريخ القبول: 2019/04/21 تاريخ النشر: 2020/10/25

الملخص:

يعد الشيخ مبارك الميلي من بين المؤرخين الجزائريين الذين أساهموا في كتابة وتدوين تاريخ الجزائر في الفترة الحديثة والمعاصرة، فقد كان له وجود ضمن كوكبة المؤرخين الذين تخصصوا في هذا النوع من الكتابة من أمثال توفيق المدني وعبد الرحمان الجيلالي، وبهذا يعد من رواد المدرسة التاريخية الجزائرية، إذ يعد كتابة تاريخ الجزائر في القديم والحديث أول كتاب يؤلف كرد فعل على ما كتبه مؤرخي المدرسة التاريخية الكولونيالية مع نهاية العشرينات من القرن الماضي، ويكون بذلك قد أرسى أسس المدرسة التاريخية الجزائرية.

في هذه الدراسة سوف نتطرق إلى الشيخ مبارك الميلي "المؤرخ"، الذي تصدى للمدرسة الفرنسية الكولونيالية التي شككت في تاريخ الجزائر وقامت بتزويره، ولا نتكلم عن الميلي المصلح الذي تصدى للكثير من البدع والخرافات التي عرفتها الجزائر وقت ذاك، وهذا من خلال عرض لحياته التي تميزت بأنها كلها كفاح في سبيل بعث وتحصين مقومات الشخصية الجزائرية ومنهجه في كتابة التاريخ والصعوبات التي واجهته في ذلك.

الكلمات المفتاحية: الشيخ مبارك الميلي المؤرخ، كتابة تاريخ الجزائر المعاصر، المدرسة التاريخية الجزائرية، المدرسة التاريخية الكولونيالية، رواد المدرسة التاريخية الجزائرية، كتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث، منهجية الكتابة التاريخية.

ABSTRACT:

Sheikh Mebarek El Mili, a presentation on his life and his method of writing history. Sheikh Mebarek El Mili is one of the best-known Algerian historians who have largely contributed to the writing of Algerian history through ancient and modern eras. He was among the elite of historians who specialized in this kind of writing such as: Ahmed Taoufik El Madani and Abderrahman El Djillani. Moreover, he is considered to be the leader of the Modern Algerian School of History thanks to these contributions, in particular his work: "History of Algeria in ancient and modern times", the first volume of which appeared in 1928, the latter having the foundations of the Modern Algerian History School were well established towards the end of the 19th century; it is considered to be the first work which answered what the historians of the Colonial School wrote.

In this modest study, we will focus on Cheikh Mebarek El Mili, the "historian" who confronted the French colonial school, the one which questioned and falsified Algerian history. It should be noted

المجلد: 12 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحات: 8-22 ISSN : 9577-1112 EISSN : 2602-5388

that Mebarek El Mili "the reformer man" fought the heresies and superstitions which were very widespread at that time.

As a result, our presentation revolves around the life of resistance he led to strengthen the essential constituents of the Algerian personality. Thus, we will highlight his method used in writing history and the obstacles he faced.

Keywords:

Cheikh Mebarek El Mili the historian, the writing of modern Algerian history, the School of Algerian history, the School of colonial history, the pioneers of the School of Algerian history, the book: " History of Algeria in ancient and modern times", the methodology of writing history.

1. مقدمة :

إن الحديث عن كتابة تاريخ الجزائر هو حديث عن ذاكرت وطن ضارب بجذوره في التاريخ، ووصل بين حلقات الأجيال المتعاقبة فيه، وفي نفس الوقت التصدي للمشروع الثقافي الاستعماري الذي حاول نفي وطمس هذه الأمة من خلال كتابات المدرسة الاستعمارية الكولونيالية، وتشويه تاريخها وتوجيهه لخدمة الاستعمار حاضرا ومستقبلا، مع بداية القرن العشرين شهدت الجزائر تحولات حاسمة كان لها انعكاس بارز على الحياة الفكرية والأدبية وأوجدت مناخا جديدا للكتابة التاريخية فامتطى صهوة تدوين تاريخ الجزائر فرسان لا يشق لهم غبار، وكان لهم القدم السبق في حفظ تراثنا ورعاية تاريخنا وتحملوا في سبيل كتابته المشاق ومن جملة هؤلاء الشيخ المؤرخ مبارك الميلي، الذي يعد من رواد المدرسة التاريخية الجزائرية وأسهم في التصدي للمشروع الاستعماري من خلال كتابه تاريخ الجزائر في القديم والحديث في هذه الدراسة سوف نتطرق إلى الشيخ مبارك الميلي المؤرخ، الذي تصدى للمدرسة الفرنسية الكولونيالية التي شككت في تاريخ الجزائر وقامت بتزويره, من خلال عرض لحياته التي تميزت بأنها كلها كفاح في سبيل بعث وتحصين مقومات الشخصية الجزائرية ومنهجه في كتابة التاريخ والصعوبات التي واجهته.

2- دوافع ومميزات الكتابات الفرنسية حول تاريخ الجزائر:

انطلق الفرنسيون في كتاباتهم عن تاريخ الجزائر من عدة معطيات لا تزال إلى اليوم تتحكم في كتابات المدرسة الكولونيالية الفرنسية أهمها[1]:

1- دخولهم ارض الجزائر بالقوة، أي دافع السيطرة والاحتلال، ومحاولة تبرير وجودهم بهذه الأرض، فكانت البداية بجمع الآثار المكتوبة وغير المكتوبة وتمحيصها وتدقيقها فاستعان

المجلد: 12 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحات: 8-22 ISSN : 9577-1112 EISSN : 2602-5388

الفرنسيون بالعديد من الكتاب الجزائريين مثل ما كتبه محمد بن علي التلمساني عن علماء وهران وتلمسان، وما كتبه العنتري وابن مبارك عن تاريخ قسنطينة.

2- باعتبارهم شعب متحضر جاء لنشر الحضارة، هذه الأخيرة التي حملت معها إلى الجزائر كل أدوات الغزو الفكري، فقد جاءت بالمطبعة والصحيفة وكذا بالمترجمين وبالمستشرقين الذين يدعون معرفة الإسلام وتاريخه.

3- الدافع الديني يعتبر كذلك أحد أبرز منطلقات الكتابة، كونهم مسيحيين فرضوا سيطرتهم على شعب مسلم، إذ يعتبر احتلال الجزائر حلقة من حلقات الحروب الصليبية، لذلك اهتموا بتاريخ الجزائر لمعرفة أسرار وخبايا المراحل السابقة التي عرفتها الجزائر.

4- الفضول العلمي وهو الرغبة في الاكتشاف ومعرفة المجهول، خاصة إن هذه الفترة عرف فيه العقل الأوربي رغبة جامحة في المعرفة والاكتشاف.

وعليه يمكن القول إن الهدف الأساسي الذي كانت تهدف إليه الكتابات الفرنسية هو خدمة الاستعمار بالدرجة الأولى ومحاولة تبرير احتلاله للجزائر، وهذا رغم تعدد وتنوع الاهتمامات واختلاف المستويات الثقافية لهؤلاء الكتاب، فمنهم من كان ينتسب إلى سلك القادة العسكريين، ومنهم من كان من العلماء المتخصصين.

كان للقادة العسكريين والحكام المدنيين قصب السبق طيلة سنوات الخمسين الأولى من الاحتلال (1830-1880)، في كتابة تاريخ الجزائر، حيث تم نشر الكثير من المذكرات الشخصية والتقارير الرسمية، وتميزت الكتابات التاريخية الفرنسية في هذه الفترة بسيادة عنصر الهواية والخدمة العسكرية، وفي محاولة لاستكشاف بنية المجتمعات القبلية في الجزائر من خلال جمع الروايات الشفوية والتقارير الرسمية والمذكرات شخصية، إن انعدام التخصص لدى هؤلاء العسكريين، جعل مثل هذا الإنتاج اقرب إلى الثقافة العامة منه الى التخصص، ومن ابرز من كتب في هذه الفترة نجد : شارل فيرو(Charles Féraud) وارنست مارسيي (Ernest Mercier) و جورج فوازين (Georges Voisin) المعروف باسم اسماعيل اوربان (Ismail Urbain)[2].

المجلد: 12 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحات: 8-22 ISSN : 9577-1112 EISSN : 2602-5388

أما عن أساتذة الجامعات وذوي الاختصاص في مجال الدراسات فقد واصلوا الكتابة والنشر طيلة السنوات الممتدة من (1880-1954)، خاصة بعد تأسيس جامعة الجزائر سنة 1909م ومعهد الدراسات الشرقية سنة 1933م، تلاه إنشاء معهد الأبحاث الصحراوية سنة 1940م وساعدهم أكثر في الكتابة والنشر تأسيس العديد من المجلات التي تهتم بنشر الأبحاث والدراسات منها المجلة الإفريقية (Revue Africaine) سنة 1856م التي تصدر عن الجمعية التاريخية الجزائرية، والنشرية الأثرية لمقاطعة قسنطينة سنة 1852م تصدر عن جمعية قسنطينة الأثرية، ومن أشهر من كتب في هذه الفترة نذكر: ستيفان غزال(S.Gzell)، وغوتي(Gauthier)، وإسكار(G.Esquer) وإميري (M.Emerit)، وغيرهم[3].

إن هذين الفريقين سواء العسكريين أو المؤرخين الاختصاصيين تولوا جمعيا تزييف وتحريف تاريخ الجزائر، وفق مهام ومنهج المدرسة التاريخية الاستعمارية، فنجد أن هذه الكتابات ركزت في معظمها على بعض النقاط المهمة نذكر منها:

- إبراز بلاد المغرب في ظل إمبراطورية روما، وذلك بالإشادة بالأباطرة وعلاقتهم بالبربر، وبتقديمهم على أنهم أحفاد الغاليين (بلاد الغال).
- التركيز على الروايات العربية الأسطورية لتصوير الفاتحين كسفاحين وناهبين لخيرات المجتمعات القبلية البربرية.
- إبراز بعض الهجرات والتهويل من دورها، مثل الهجرة الهلالية التي ادعت بأنها أسهمت في تخريب بلاد المغرب[4].

وأول من قام بنشر هذه الأفكار العنصرية نجد على الخصوص ارنست مرسيي (Ernest Mercier) في كتابه الأول الصادر سنة 1875م بعنوان: تاريخ استقرار العرب بإفريقيا الساحلية، ثم كتابه الثاني الذي طبع سنة 1888م بعنوان: تاريخ إفريقيا الساحلية من الأزمنة البعيدة إلى الفتح الإسلامي[5]، بالإضافة إلى ما ذكره ستيفان غزال (S.Gzell)، في تقديمه لكتاب: تاريخ ومؤرخو الجزائر بقوله: (إن هذه الأخيرة أي الجزائر هي جزء اقتطع تعسفا من إفريقيا الشمالية في العهد التركي، حيث عرف حدوده الحالية تقريبا، انها وحدة مزيفة، جعلت منها فرنسا قدر

المجلد: 12 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحات: 8-22 ISSN : 9577-1112 EISSN : 2602-5388

المستطاع وحدة حقيقية...)[6]، هذه هي النظرة السائدة لدى المدرسة التاريخية الفرنسية، نظرة عداء للعرب بصفة عامة والجزائر خاصة، وقد تجلت في جل الدراسات الفرنسية حول تاريخ الجزائر.

2- المساهمة الجزائرية في كتابة تاريخ الجزائر:

مع بداية القرن العشرين حدثت تحولات حاسمة سواء في الجزائر أو خارجها، أوجدت مناخا جديدا أسهم في بروز بعض الكتابات التاريخية الجزائرية جاءت كرد فعل على الكتابات الفرنسية، وأسهمت في التصدي لهذا للمشروع الاستعماري، الرامي إلى طمس هوية وتاريخ هذا البلد، ويمكن التمييز بين مرحلتين أساسيتين لهذه الكتابات[7]:

- **المرحلة الأولى:** خلال العقد الأول من القرن العشرين، غلبت عليها حركة إحياء التراث ونشر المصادر التاريخية الجزائرية، من تأليف وتراجم، ومن ابرز رواد هذه المرحلة نذكر محمد بن ابي شنب (1869-1929)، الذي نشر العديد من أمهات التراث الجزائري مثل: عنوان الدراية للغبريني سنة 1910م، ونزهة الأنظار للورتلاني سنة 1908م، ونحلة اللبيب لابن عمار 1902م وغيرها، بالإضافة إلى أبي القاسم الحفناوي (1850-1942م) الذي اصدر معجما بأعلام الجزائر سنة 1906م يحمل عنوان: تعريف الخلف برجال السلف، يعد موسوعة للأعلام الجزائرية التي ساهمت في بعث تاريخ الجزائر الثقافي.
- **المرحلة الثانية:** تبدأ من نهاية العقد الثالث من القرن العشرين، توجهت إلى معالجة تاريخ الجزائر باعتباره وحدة من حيث المدى الزماني والحيز الجغرافي، وإحياء ونشر تاريخ هذا البلد، ونشر الثقافة الصحيحة عن تاريخ شعوب المنطقة، ومن ثمة تكذيب فكرة انتساب الجزائر لبلاد الغال، ويمثل هذه المرحلة كل من توفيق المدني الذي ألف كتاب تاريخ الجزائر سنة 1932م، وكتاب محمد عثمان باشا سنة 1938م، عبد الرحمان الجيلالي: كتاب تاريخ الجزائر العام سنة 1953م والمؤرخ الشيخ محمد مبارك الميلي الهلالي الذي ألف كتابه تاريخ الجزائر في القديم والحديث في جزءه الأول سنة 1928م[8].

المجلد: 12 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحات: 8-22 ISSN : 9577-1112 EISSN : 2602-5388

هذه الشخصية الأخيرة لعبت دورا بارزا في إرساء ووضع أسس المدرسة التاريخية الجزائرية لا أتكلم عنه كرجل من رجالات الإصلاح الذي أسهم في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931م، وقدم الشيء الكثير لتحرير الإسلام من الخرافات والبدع، ولكن الشيء الذي نركز عليه هو الشيخ مبارك الميلي المؤرخ الغيور على دينه ووطنه، من خلال عرض لحياته ومنهجه في كتابة تاريخ الجزائر، وأهم الصعوبات والعراقيل التي واجهته.

يعتبر الشيخ مبارك الميلي أحد رواد الكتابة عن تاريخ الجزائر، فقد اتخذ منحى يختلف عن من سبقوه، تمثل في كتابة تاريخ وطني تتمازج فيه الأحداث مع الوطنية المكافحة، فقد تزامن تأليف الشيخ كتابه تاريخ الجزائر في القديم، وصدور الجزء الأول منه والتحضيرات الفرنسية لاحتفالات مائة سنة لاحتلال الجزائر، لإرساء قناعة قويّة لدى الاحتلال الفرنسي بأن الجزائر صارت – وإلى غير رجعة – قطعة من ممتلكاته وامتداداً لنفوذه وسلطانه.

بالمقابل فقد عرفت الجزائر مع نهاية القرن التاسع عشر بداية القرن العشرين حركة علمية كان يقوم بها جملةٌ من العلماء المصلحين من أمثال الشيوخ :المجاوي وبن سماية وبن الموهوب وحمدان الونيسي وغيرهم، كان لهم دور كبير في ظهور وانتشار الوعي الوطني والذي تبلورت بصورة جلية في الربع الأول من القرن العشرين، فقد ظهر جيل جديد من الجزائريين من أبناء جيل النهضة والأمل من أمثال ابن باديس والعقبي والإبراهيمي، هذا بالإضافة إلى جهود المقاومة السلمية المتمثلة في حركة الأمير خالد بعد الحرب العالمية الأولى (1914-1918م).

في ظل هذه الظروف ألف مبارك الميلي كتابه تاريخ الجزائر في القديم والحديث عندما أقام في الاغواط، حيث صدر الجزء الأول منه في قسنطينة سنة 1928م، فيما صدر الجزء الثاني سنة 1932م.

3- مولد الشيخ الميلي ونشأته:

مبارك الميلي هو الشيخ مبارك بن محمد بن رابح بن علي إبراهيمي لقبه ولقب أسرته براهيمي ملقب بالميلي نسبة إلى مدينة الميلية بشرق الجزائر التي ولد بها سنة 1898م، حسب

المجلد: 12 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحات: 8-22 ISSN : 9577-1112 EISSN : 2602-5388

ما ذكره ابنه محمد الميلي[9]، في عائلةٍ ذات غنًى ووجاهة، كفلَه جدّه وجدّته بعد وفاة والده منذ الرابعة، ووالدتِه منذ ستّ سنوات من عمره، ووَجد في كفالة جدَّيه الحنان والتربية الحسنة[10].

بدأ تعليمه بدوار أولاد مبارك بمدينة الميلية، وعكف منذ صغره – كغيره من الكثير من أبناء الجزائر في ذلك الوقت – على حفظ القرآن الكريم، فأتمّ حفظه على يد الشيخ أحمد بن الطاهر مزهود في جامع الشيخ عزوز بمسقط رأسه، في الحادية عشرة من عمره[11]، ورغم رفضِ عمِّه – الذي تولى كفالته بعد وفاة جده – توجهَه لطلب العلم، وألزمه بالالتحاق بالفلاحة والرَّعي، فإنه صمَّم على استكمال طريق العلم المضني، فالتحق بمدرسة الشيخ محمد بن معنصر الشهير بالميلي ببلدة ميلة، لمواصلة مسيرة طلب العلم، ومكث هناك نحو أربع سنوات، حيثُ بدأَت شخصيته العلمية تتشكل، قبل أن يتجه إلى مدينة قسنطينة، لينضم إلى دروس الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس رحمه الله بالجامع الأخضر، وليُصبح من بين أكبر تلاميذه وأكثرهم انتفاعًا بعلمه، فقد كان الجامع الأخضر محطَّة هامَّة في حياة الميلي وأترابه من طلاب العلم حيث تم إرساله ضمن الطلبة المتفوقين إلى جامعة الزيتونة بتونس، فنهَل العلم على يد أبرز علمائها الذين كان لهم الأثرُ البالغ في تكوينه العِلمي، ومنهم: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور والشيخ محمد النخلي، والشيخ البشير صفير، والصادق النيفر، وغيرهم.[12]

عُرف الميلي بسلوكه العلمي الرّزين في جامعة الزيتونة، وهو ما جلب له تقدير شيوخه وزملائه على السواء، وقضى فيها نحو أكثر من أربع سنوات من التحصيل العلمي، كُلِلت في 1924م بنيل شهادة العالمية – التي كانت تسمَّى بشهادة التطويع.[13]

بعد عودته إلى الجزائر انخرط الشيخ مباشرة في العمل الإصلاحي, إلى جانب إخوانه من العلماء المصلحين، وفي البداية استقر الشيخ للتعليم في مدينة قسنطينة، يدرس لطلاب العِلم بالمدرسة الباديسية حتى 1927، ثم دَعاه سكان مدينة الاغواط بالجنوب الجزائري للتعليم فافتتح هناك مدرسة جديدة عَرفت قبولا متزايدا ونشاطًا متناميًا، حتى أصبحَت حديثَ الخاص والعام، مما أثار تخوُف سلطات الاحتلال الفرنسي من آثارها الإيجابية على الشباب خاصة والشعب عمومًا، فمنَعَته من الاستمرار في التعلم، وأمَرَته بمغادرة المدينة بعد سنوات من النشاط المضني فيها.[14]

المجلد: 12 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحات: 8-22 ISSN : 9577-1112 EISSN : 2602-5388

وهو نفس المصير الذي لاقاه مِن إدارة الاحتلال الفرنسية في مدينة بوسعادة، التي طردَته منها أيضا، ليعود إلى مدينة ميلية من جديد يؤسس فيها مسجدًا للصلاة بمعية أعيان المدينة، بعد أن أهدى أحدُهم أرضَه لعلماء الإصلاح والمناصرين له. فكان يدرس ويخطب فيه، ثم أسس هؤلاء بقيادة الميلي جمعية النادي الإسلامي، التي ما فتئت أن أزعَج نشاطها الاحتلالَ وعُملاءه من طرقيين وخصوم الإصلاح، خاصة بعدما توسعَت دائرة الأعمال والنشاطات، وكون المسجدُ والنادي المذكوران جمعية أخرى تحت اسم جمعية حياة الشباب، وتوسع النشاط والعمل فيها اليوم بعد اليوم، مما أدى ببعض التقارير الفرنسية بالإقرار بأن الشيخ يقدم تعليما حيا وواسعا[15] وهو ما جلب له سخط إدارة الاحتلال، كغيره من علماء الإصلاح.

وكان الأستاذ مبارك الميلي أحد مؤسِّسي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وأحد أعضاء مجلسها الإداري حيث عُين أمينًا للمال للجمعية بعد إعلانها، لينخرط في النشاط الإصلاحي رسميا في الجزائر عبر كلِّ منابره، فقد كان إماما خطيبا ومعلّما متفانيا وصحفيّا ومؤرخا وكاتبا وإداريا مخلصا، ولمّا توفي رئيس الجمعية الشيخ ابن باديس كان الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في منفاه في آفلو جنوب غرب الجزائر، انتخبه إخوانه العلماء – وهو في منفاه– رئيساً جديداً لهم، فاضطلع الميلي مع بقية العلماء ورجال الجمعية بمهامها والقيام بأعمالها إلى أن عاد رئيسُها المنفي إلى أعماله فكان خيرَ عون له عليها، كيف لا، وقد وصف الإبراهيمي نفسه مكانتَه وسيرتَه فيها بقوله: وإنّ لأخينا مبارك الميلي على جمعية العلماء حقوقاً فقد كان مرجعها يوم تحلو لك المشكلات، وتضل الآراء، فيشرق عليها بالرأي كأنه فلق الصبح وقد كان معقلَها يوم تشتبه المسالك، وتكاد الأقدام تزلّ، فيثبت على الحق كالجبل الراسي، وكان منها بحيث لا يجترئ عنها مجترئ، ولا يفتري عليها مفترٍ، إلا رمته منه بالسيف الذي لا تنبو مضاربه[16].

ظل الشيخ يتحدى ويقاوم المرض الذي أعياه وهو في قمة عطائه العلمي ونشاطه الإصلاحي محاولا القيام ولو بأدنى الأعمال التعليمية الإصلاحية، حيث يذكر الشيخ احمد حماني انه شوهد منهكا يوم قبل وفاته بمدرسة التربية والتعليم بقسنطينة، ثم طلب نقلة إلى ميلية أين توفى بها في التاسع من فبراير 1945[17]، وكان لوفاته صداها في الجزائر وخارجها، ورَثاه الشعراء والكتاب.

المجلد: 12 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحات: 8-22 ISSN : 9577-1112 EISSN : 2602-5388

4-تأليفه لكتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث:

خلال فترة استقرار الميلي بمدينة الاغواط (1927-1933م)، اخرج كتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث، غير أن بدايات تحضير الكتاب قد سبقت إقامته الاغواط، فصدر الجزء الأول بقسنطينة سنة 1928م، فيما صدر الجزء الثاني سنة 1932م، وقد اعترف الشيخ المؤرخ بالصعوبات التي لازمته طوال فترة إعداد الكتب، والتي يمكن حصرها في النقاط التالية:

- تعدد نشاطات الشيخ بين العمل الدعوي والتعليمي والكتابة في الصحافة والإشراف على جريدة البصائر، بالإضافة إلى مسؤوليته كأمين مال لجمعية العلماء المسلمين، وقد أشار لذلك بنفسه بقوله: (وقد قاسيت في تصحيح الأعلام وجمع المواد وإيضاح الأعراض التاريخية وتقريب الأسلوب من المنهج العصري ما لا يعلمه إلا من عملي).[18]

- التضييق الذي كان يتعرض له رجال الإصلاح من طرف السلطات الاستعمارية ومنهم الشيخ الميلي في محاولة لحنق صوته مثل ما حدث في مسقط رأسه وفي الاغواط وبوسعادة، كما أن تأليفه لكتاب رسالة الشرك ومظاهره قُوبِل أيضاً برفض شديد من قِبَل الكثيرين من شيوخ الطرق الصوفية وأتباعهم، وخاصة في أوساط الطريقتين التيجانيّة والعلويّة، هذه الأخيرة التي تهجمت على الكتاب ومؤلفه بصفة خاصة وجمعية العلماء ودعاة الإصلاح بصفة عامة، ومثال ذلك ما تضمّنَتهُ رسالةٌ نُشِرَت لأحد أتباع تلك الطريقة في صحيفة لسان الدين مما جاء فيها: (..لقد اطلعت على الكتاب المسمّى بالشرك ومظاهره لمؤلفه الشيخ مبارك الميلي، ولقد عرَّفتني صورةُ ذلك الكتاب ما تُقاسيه الأمة الجزائرية من المحن والبلايا من جماعة الإصلاح... وقد حوى الكتابُ جملةً من التمويهات والأضاليل وفساد العقائد، وبالجملة فقد دَسَّ الشيخُ مبارك الميلي في هذا الكتاب ما لم يَدُسُّه إبليسُ في ثلاثة عشر قرناً)[19].

- عدم التمكن من القراءة بالفرنسية جلب له صعوبات جمة في مجال ترجمة كل ما كتب بالفرنسية حول تاريخ الجزائر، ولذلك فقد استعان بأصدقائه ممن كانوا يحسنون الفرنسية، وهذا ما يؤكده احد أصدقائه توفيق المدني بقوله : (وكان رحمه الله في هاتيك الأثناء (1931) ينهمك في انجاز ما

المجلد: 12 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحات: 8-22 ISSN : 9577-1112 EISSN : 2602-5388

ثرته الخالدة : تاريخ الجزائر في القديم والحديث، وقد جمع له أهم المصادر العربية ، فتعهدت له بأن اجمع له أهم المصادر الفرنسية، وأن أقدم له مترجما إلى العربية ما يهمه من ذلك، وانكب كل منا على عمله، منقطعا له انقطاع الناسكين، وإذ تم تعريب أهم الأبواب، واغلب الفصول من مختلف الكتب التاريخية الفرنسية، قدم العاصمة رحمه الله خصيصا من اجل ذلك).[20]

– قلة المادة التاريخية المكتوبة بالعربية والموجودة منها قام بها المترجمون والعسكريون وبالتالي القصد منها تشويه وتزوير تاريخ الجزائر وتبرير وجودهم في هذه الأرض.

– الظروف الصحية الصعبة التي ألمت به خلال كتابته الأخيرة، حتى وافته المنية قبل أن يكمل الجزء الأخير من كتابه.

5- منهجه في الكتابة التاريخية:

قبل الحديث عن منهج الشيخ في كتابة التاريخ ينبغي الإشارة إلى أن العصر الميلي افتقد لمدارس التاريخ وبالتالي خلو الكتابات التاريخية من المنهج الأكاديمي، ولكن هذا لا يعني أن الكتابة التاريخية عند الرجل تخلوا تماما من المنهجية، إذ يمكننا استخلاص بعض النقاط المنهجية من خلال مؤلفه تاريخ الجزائر في القديم والحديث كما يلي[21]:

- من خلال عنوان الكتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث نجد انه جمع واعتمد قاعدة الكل فالجزء أو ما يعرف بالتاريخ العام وهو نفس المنهج الذي اعتمدته العديد من المدارس الأكاديمية التاريخية في العالم مثل الاتحاد السوفياتي سابقا على يد بتروفسكي، والولايات الأمريكية المتحدة على يد شارل بيرد اوستن.
- اعتماده أسلوب الاستقراء نظرا لزخم الأحداث واختلاف طبيعتها وبعدها الزمني من خلال التحري والتمحيص، وهو ما يؤكده توفيق المدني بقوله: (...وقضينا عشرين يوما في عمل مستمر، لا ينقطع إلا الفترات القصيرة، ونحن نقابل بين نص ونص، ونحكم مختلف الكتب فيما يتراءى لنا من تناقض أو اختلاف بين مؤرخي الشرق ومؤرخي الغرب،

المجلد: 12 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحات: 8-22 ISSN : 9577-1112 EISSN : 2602-5388

وننهمك في عمليات حسابية طويلة، كي ندقق تاريخا أو نوفق في شأن الحادثة الواحدة، بين ما يرويه هذا ويقصه ذلك)[22]

- التحكم الجيد في البناء الزمني حيث اتصف الكتاب بتسلسل الأحداث ومحاولة الربط بينها وهو واضح من خلال أبواب وفصول الكتاب.
- الابتعاد عن الأحكام المطلقة في تناوله لنتائج الأحداث حيث اكتفى بالإدلاء بعض الآراء بعيدا عن روح النقد، لكن هذا لم يمنعه من توجيه اتهامات لمعاصريه من المؤرخين عندما يتهمهم بتحريف الحقائق التاريخية بسبب تعصبهم العرقي والوطني وحب التفوق واستعباد الغير وجهلهم بالمصادر التاريخية الصحيحة.[23]

6- أهداف الكتابة التاريخية عند الميلي:

تطرق الميلي في مقدماته لعلم التاريخ و نظرته له، فقد اعتبره مرآة الغابر و مرقاة الحاضر فهو دليل وجود الأمم وديوان عزها ومبعث شعورها وسبيل اتحادها وسلم رقيها، ويضيف انه الوسيلة الممكنة لإدراك الماضي الشريف بعيدا عن عبث المدلسين[24]، وعليه يمكن استخلاص مجموعة من الأهداف التي حرص الميلي على تحقيقها من وراء الكتابة التاريخية يشترك فيها مع العديد ممن كتب في تلك الفترة التاريخية، نستطيع القول أنها صفات ميزت الكتابات الجزائرية يمكن حصرها فيما يلي:

- كانت تهدف إلى تحريك الهمم وبعث الشعور الوطني في نفوس الناشئة وإبطال أسطورة الجزائر الفرنسية.
- استعمال الكتابة التاريخية لمحاربة النظام السياسي الاستعماري وخدمة للقضية الوطنية والوحدة الجزائرية.
- محاربة ظاهرة آفة النسيان وتجديد الذاكرة الجزائرية.
- تحسيس الجزائريين بدور وأهمية الكتابة التاريخية والتصدي للمدرسة الفرنسية الكولونيالية التي شككت في التاريخ الجزائري.

المجلد: 12 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحات: 8-22 ISSN : 9577-1112 EISSN : 2602-5388

07- شهادات حول الكاتب وكتابه:

قوبل مؤلف الميلي تاريخ الجزائر في القديم والحديث بفخر واعتزاز من رواد الحركة الإصلاحية وهذه بعض الشهادات حول الشيخ المؤرخ ومؤلفه.

لما اطلع العلامة ابن باديس رحمه الله على جزء الأول من كتابه تاريخ الجزائر، أبدى سروره بهذا الكتاب، فأرسل إلى الشيخ مبارك الميلي يهنئه قائلا: (...وقفت على الجزء الأول من كتابك تاريخ الجزائر في القديم والحديث، فقلت لو سميته حياة الجزائر، لكان بذلك خليقا، فهو أول كتاب صور الجزائر في لغة الضاد صورة سوية تامة، بعدما كانت تلك الصورة أشلاء متفرقة هنا وهناك... إذا كان من أحيا نفسا واحدة فكأنما أحيا الناس جمعيا، فكيف بمن أحيا أمة كاملة، أحيا ماضيها و حاضرها... فليس -والله- كفاء عمله أن تشكره الأفراد، ولكن كفاء هان تشكره الأجيال...)[25]

وقد أبدى الأمير شكيب ارسلان إعجابه بكتاب الشيخ، فقال في رسالة إلى الشيخ الطيب العقبي (... وأما تاريخ الجزائر فو الله ما كنت أظن أن في الجزائر من يفري مثل هذا الفري..).

وأولت الصحافة التونسية أهمية خاصة لصدور الكتاب، ورأت فيه بادرة تحول في خطة رجال الجمعية ، واعتبرته من الأيام الجليلة التي جاءت في إبانها، لا لتسد النقص الذي تشكو منه المكتبة الجزائرية فحسب، وإنما اعتبرته ضربا من ضروب المقاومة، وتصويبا للأخطاء والمغالطات التي تقصّد إليها الأجانب من المستعمرين في خطة مبيتة لتشويه تاريخ الجزائر ووعدّت الصحافة التونسية صدور الكتاب بداية نهضة حقيقية قائلة: (نهضت الجزائر نهضة مباركة منذ سنوات قليلة، وشعرت بأن الخطوة الأولى في سبيل النهوض لابد أن تعتمد على الأدب الذي هو قوام الروح وغذاء الفكر والدافع الأقوى إلى المشي نحو الأمام).[26]

وقال عنه الأستاذ احمد توفيق المدني (...وأقسم إنني ما عملت مع احد عملاً أحب إليّ، وأمتع لنفسي،-إذا استثنيت سني الجهاد ضمن الحزب الدستوري التونسي- من عملي ذلك، خلال تلك الفترة القصيرة، إلى جانب مبارك الميلي، ولقد رأيت فيه يومئذ خلالا جعلته في نظري أنموذج المؤرخ الصادق، وهذه شهادة أؤديها للمعاصرين وللأجيال: الصبر على

المجلد: 12 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحات: 8-22 ISSN : 9577-1112 EISSN : 2602-5388

البحث، وغلوا في التحقيق والتدقيق، ومهارة منقطعة النظير في المقابلة بين النصوص ونظرة صائبة في استجلاء الغوامض، وحكم صادق في أسباب الحوادث ونتائجها، ومهارة في الترتيب والتبويب، وحسن سباك يجعل التاريخ كله كالسلسلة المفرغة... يضيف ...فمبارك الميلي سلك في تدوين تاريخه مسلك التحليل العصري، فلم يكن يكتفي باستجلاء الحقائق، وإثباتها مجردة ، بل كان يمعن النظر في الأسباب والنتائج، ويثبت أحكاما هي عصارة فكره، وخلاصة رأيه ونتيجة بحثه واستقرائه... فتاريخ الجزائر في القديم والحديث لم يكن من تلك الكتب الجافة الجامدة، المملة المضنية، بل كان إلى جانب التحقيق التاريخي كتابا طريفا حيا، تتراءى لك فيه شخصية مؤلفة العظيمة، فإذا بها شخصية هائلة جسيمة، هي شخصية الوطني الصادق، شخصية المسلم الصحيح، شخصية العربي المتفاني في سبيل عروبته، شخصية الرجل المثالي الذي يدأب سعيًا لإدراك غايته، والبلوغ بأمته، إلى ذروة المجد والعزة والكرامة).[27]

وقال عنه أمير البيان الشيخ البشير الإبراهيمي (...حياة كلّها جِدّ وعمل، وحَيٌّ كلّه فكر وعلم، وعمره كلّه درس وتحصيل، وشابّ كلّه تَلَقّ واستفادة، وكهولة كلّها إنتاج وإفادة، ونَفْس كلّها ضمير وواجب، وروح كلّها ذكاء وعقل، وعقل كلّه رأي وبصيرة، وبصيرة كلّها نور وإشراق، ومجموعة خلال سديدة وأعمال مفيدة، قلَّ أن اجتمعت في رجل من رجال النهضات، فإذا اجتمعت هيَّأت لصاحبها مكانه في قيادة الجيل، ومهَّدت له مقعرة في زعامة النهضة ..ذلكم مبارك الميلي الذي فقدته الجزائر، وفقدته المحافل الإصلاحيّة، ففقدت مؤرخها الحريص على تجلية تاريخها المغمور، وإنارة جوانبه المظلمة، ووصل عراه المنفصمة ...)[28]

واختم بما قاله الدكتور أبو القاسم سعد الله رحمه الله في حديثه عن دوافع كتابة مبارك الميلي فيقول :(... ومن يقرأ مقدمات كتابه، سيجده مركزا كثيرا على ذلك الدافع، ونعني به الجهل بالتاريخ الوطني، مضافا إليه التنكر له أيضا والقدح فيه، وفي اعتقادنا أن الميلي كتب تاريخا هو في الواقع درس في السياسة والوطنية وجزء من مهمته كمرشد وواعظ ومدرس في مدرسة الإصلاح، ويبدوا لنا ان الذين تلقوا عليه دروس العامة كانوا أيضا يتلقون عليه دروس الوطنية، لان أفكاره في دروسه هي أفكاره في كتابه).[29]

المجلد: 12 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحات: 8-22 ISSN : 9577-1112 EISSN : 2602-5388

الخاتمة:

في الأخير نستطيع القول أن الشيخ دخل الكتابة التاريخية بتأليفه كتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث من زاوية الهواية التاريخية، إلا انه أدى الهدف الذي رسم له وهو خدمة الوطن والعربية، فكان تأليفه وسيلة من وسائل النضال الوطني دافع من خلاله عن شعب سلبت أرضه، وفي نفس الوقت مرافعة حاسمة عن قضايا ماضيه وحقائقه ومصيره، وكشفا علميا للاحتيال الكولونيالي وادعاءاته وأكاذيبه، ودعوة تاريخية للعلماء والشعوب، للشهادة على كيفية استغلال فرنسا بكتابها ومُغامريها ومؤرخيها وعسكرييها، لضعف الجزائريين وجهلهم، لاستعبادهم وامتهان كرامتهم وطمس ماضيهم، واستكمال مهمة الإبادة الجماعية بالتصفية الجسدية، والتطهير العرقي التي قادتها آلة القتل الفرنسية من جهة، بالإبادة الحضارية الدينية واللغوية من جهة أخرى... عبر تشويه الحقائق واختراع تاريخ بديل للجزائر والجزائريين، فكان كتاب الشيخ وثيقةَ الحجة على كل ذلك.

فرحمة الله على الشيخ وجميع إخوانه المصلحين رحمة واسعة

الهوامش:

[1] – ابو القاسم سعد الله، ابحاث وأراء في تاريخ الجزائر، الجزء 01,دار المعرفة للنشر والتوزيع، طبعة خاصة، الجزائر,2009,ص ص 18.17

[2]– للمزيد انظر ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، دراسات وابحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط1, دار الغرب الاسلامي، بيروت ،2000، ص 10

[3]– نفسه، ص 11

[4]– علاوة عمارة، الشيخ مبارك الميلي ومواجهة المشروع الفرنسي لكتابة تاريخ الجزائر، مجلة المواقف. جامعة مصطفى اسطنبولي، معكسر, العدد 03, ديسمبر 2008,ص 94

[5]– نفسه

[6] – احمد مريوش، دراسات وابحاث في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، جزء 01,مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، ط1, 2013, ص325

[7] – سعيدوني، مرجع سابق، ص ص14.13

[8] – مريوش، مرجع سابق، ص 325

المجلد: 12 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحات: 8-22 ISSN : 9577-1112 EISSN : 2602-5388

[9]– محمد علي دبوز، أعلام الاصلاح في الجزائر 1921– 1975 , مطبعة البعث، قسنطينة. ط1,ج3,ص31

[10]– نفسه، ص 32

[11]– ابو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج7,دار الغرب الاسلامي , 1998, ص 409

[12]– عبد الحميد ابن باديس، مجالس التذكير من كلام الخبير، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، ط1, دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة, 1982ص ص 474.475

[13] – احمد حماني، صراع بين السنة والبدعة، مج2 , دار البعث، قسنطينة , 1984 , الجزائر، ص14

[14] – سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ص 412

[15] – نفسه، ص 413

[16] – احمد طالب الابراهيمي، اثار البشير الابراهيمي، ج3,ط1 ودار الغرب الاسلامي ,1997 , ص 575

[17] – حماني، مرجع سابق، ص ص 18.17

[18] – مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج1 , دار الغرب الاسلامي، ص13

[19] – – مجلة الرؤية، الجزائر، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، السنة الأولى، العدد الثاني، ص 142

[20] – احمد توفيق المدني، مبارك الميلي مؤرخ الجزائر، البصائر , 01مارس 1948

[21] – مريوش، مرجع سابق، ص 330

[22]– المدني، مرجع سابق

[23]– علاوة، مرجع سابق، ص 100

[24]– الميلي، المرجع السابق

[25]– نفسه، ص ص 9.7

[26]– محمد الصالح الجابري، المؤرخ الجزائري مبارك الميلي في الصحافة التونسية، مجلة الثقافة، العدد ,102 , ص 21

[27]– المدني، مرجع سابق

[28]– احمد طالب الابراهيمي، اثار البشير الابراهيمي، ج2,ط1 ودار الغرب الاسلامي ,1997 , ص183

[29] – ابو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج7 ,ط1, دار الغرب الاسلامي، بيروت 1998, ص ص305 306.